... وحَياتِكَ يا مُحمّد...

كذلك فقد فهم الصحابة وهم ـ غالبيتهم ـ من العرب الأقحاح أن في كثيرٍ من الآيات أقسم الله تعالىٰ بعظيم قدر حبيبه المصطفىٰ ﷺ ، ومعنىٰ ذلك ثناء الله عليه ، وبيان فضله.

وهذا أيضاً جعل الصحابة يتمسكون به صلوات الله عليه وبكلّ ما له علاقة به ، وقدّموا من أجل ذلك كل ما يملكون ، لذلك فازوا في الدارين ، وقد جمع القاضي عياض رحمه الله تعالىٰ بعض ما يتعلّق بذلك ، مثلاً قوله:

قال الله تعالىٰ: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

اتفق أهل التفسير في هذا أنه قَسَمٌ من الله جل جلاله بمدّة حياة محمد ﷺ من العُمر ، ومعناه: وبقائك يا محمد! وقيل: وعيشك! وقيل: وحياتك! وهذه نهاية التعظيم ، وغاية البرّ والتشريف ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما خَلَقَ الله تعالىٰ ، وما ذَرَأ ، وما بَرَأَ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ ، وما سمعتُ الله تعالىٰ أقسم بحياةِ أحدٍ غيره.

علماً أن هذا القسم ـ بعمر رسول الله ﷺ ـ جاء في معرض قصة لوط عليه السلام ، حيث قطع البيان الإلهي القصة ، ووضع هذه الجملة الاعتراضية ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ثم عاد إلىٰ القصة نفسها!!.

ومثلها قوله تعالىٰ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد: ١ ـ ٢] ، ومعناه: أن الله سبحانه أقسم بمكة التي تشرّفت بالرسول ﷺ حيّاً ، وذلك قبل أن ينتقل إلىٰ المدينة المنورة.

ومثلها ما ورد في سورة الضحىٰ ، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ

فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحىٰ: ٥] ، وهذه آيةٌ جامعةٌ لوجوه الكرامة ، وأنواع السعادة ، وشتات الإنعام في الدّارين والزيادة.

ورُوي عن بعض آل النبي ﷺ أنه قال: ليس آيةٌ في القرآن أرجىٰ منها ، ولا يرضىٰ رسول الله ﷺ أن يدخل أحدٌ من أمته النار[1].

أجل يا حبيب الله يا أحمد!

لو فهم المسلمون ما ورد في القرآن الكريم من آياتٍ تتحدث عن مقامك العالي ، لقدّموا الغالي والنفيس فداءً لنصرتك.

لقد قال كعبٌ في النبيّ قصيدةً ... وقلنا عسىٰ في مدحه نتشاركُ
فإن شملتنا بالجوائز رحمةٌ ... كرحمة كعبٍ فهو كعبٌ مباركُ

فصلوات الله وسلامه على الحبيب محمد

* * *

(١) للتوسع يراجع: الشفاء للقاضي عياض: ٧٤ ـ ٧٧.